

برزخ لاعادة التفكير

كان من شأن الفواجع التي شهدتها الساحة الاردنية وما اقترن بها من خيبات أمل فلسطينية ازاء الدعم العربي للفلسطينيين ان فتحا مزيداً من الأعين لرؤية المسافة الشاسعة التي تفصل بين ما رسمته المنظمات من أهداف أو تصوّراته من أوهام وبين واقع الحال. وبمقدار ما يتعلّق الامر بالموضوع الذي نتصدى لمتابعته هنا، فان دورة المجلس الوطني الفلسطيني الثامنة التي انعقدت بعد احداث أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠، اتخذت القرار الشهير الذي نصّ على «ان دولة المستقبل في فلسطين المحررة من الاستعمار الصهيوني هي الدولة الديمقراطية الفلسطينية التي يتمتع الراغبون بالعيش بسلام فيها بالحقوق والواجبات نفسها»^(٣٤). وبهذا، بدأ دخول الشعار الذي تبنته «فتح»، بشأن الدولة الديمقراطية، في البرنامج السياسي الفلسطيني العام، وان تمّ ذلك على استحياء وبعبارات ينقصها الجزم، والوضوح. وكانت دورتا المجلس السابقتان على هذه الدورة رفضتا تبني هذا الشعار. وقد لا تكون لتبني الشعار المذكور، مثلما لم يكن لرفعه من قبل «فتح»، قيمة عملية كبيرة. إلا ان هذا التبني شكّل مؤشراً نحو العقلانية، وعكس عمق الحوارات التي اشتدت على الساحة الفلسطينية بعد فاجعة أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠، وأظهر ان من غير المتعذر اختراق جدار الرفض المتصلّب.

هذا التطور تزامن مع تعزّز توجهات أخرى ايجابية على ساحة العمل الوطني الفلسطيني، حيث تعزّزت النزعة لتأكيد استقلالية هذا العمل، وتقوى التشبث بـ م.ت.ف. كتمثل شرعي وحيد لشعب فلسطين مسؤول عن صوغ مستقبل هذا الشعب، وتأكّدت الحاجة لمتين الوحدة الوطنية وتوسيع الهوامش المشتركة بين القوى المختلفة المنضوية تحت لواء م.ت.ف. ان التداخل بين هذه التوجهات أمر بين يكاد يكون بغير حاجة للبرهنة على وجوده. ففي تعزيز الاستقلالية الفلسطينية وتوسيع الهوامش المشتركة الكثير ممّا يساعد على التبصّر بالواقع ونبذ الاوهام. وقد ساعد هذا كله، باقترانه بتنامي الالتفاف الفلسطيني حول م.ت.ف. وتضخّم مسؤولياتها وتكاثر الاعباء والتضحيات المفروضة عليها، في انبثاق أصوات متعقّلة تجهر بالدعوة الى المطابقة بين الاهداف والامكانيات. وقد انضافت تأثيرات هذه الاصوات الى التأثير الذي مارسه الشيوعيون من قبل، والى تأثير المحيط العربي والدولي، وتمخّض عن هذا كله ان تشكّل من هذه الاصوات تيار أخذ نشاطه يتعزز أول بأول. وفي البرزخ الممتد بين أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ وتشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣، تعزّز وجود هذا التيار وانتقلت دعوته الى الواقعية من الاحاديث التي تدور في المجالس والاجتماعات المغلقة الى العلن المتمثل في الصحافة والاذاعات والندوات والاجتماعات المفتوحة. ونستطيع، من خلال معايشة هذه الفترة في حواراتها السرية والعلنية، ان نجزم بأنها هي التي تأسس فيها التحول من موقف التشبث بالهدف المطلق، ورفض ما هو أقل منه، الى الانفتاح على الواقع والتبصّر بالاحتمالات المتاحة والاستعداد للتعاطي، بايجابية، معها. صحيح ان الخطاب الفلسطيني المعلن بقي خلال هذه الفترة، في الاعم الاغلب، على حاله السابقة، وان الجملة الثورية الطنّانة الرنانة بقيت هي الغالبة في هذا الخطاب، لكن، صحيح، أيضاً، ان رؤية جديدة لموازين القوى القادمة أخذت تقصح عن نفسها هي الاخرى. حدث ذلك بعبارات فصيحة ومباشرة، في بعض الاحيان، وبعبارات ملتوية، في أحيان أخرى، غير ان دلالة وجود التوجهات الجديدة لم تغب، في الحالتين. وقد أدى هذا كله الى اعطاء قوة دفع ونشاط وتشجيع لدعاة الواقعية، وخلق الاجواء الملائمة لاستمرار التحول، وبدت الساحة الفلسطينية وكأنها بانتظار حدث كبير طاغ كي يبلغ التحول تمامه.